

النصح والحكمة في مبدأ الإمام الحسين (ع)



لقد استطاع الإسلام بجناحين من الأمن والسلام أن ينشر فكرته في شتى أصقاع الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، ورفرت ألوية الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها. وهكذا كان الإسلام ولا زال دين الأمن والسلام، والسكينة والصفاء، والمودة والإخاء، ولم يكن في وقت من الأوقات دين حرب وخصام، أو مشاحنة وبغضاء، إنما كان يهدف أو "لا" وقبل كل شيء إلى السلام، حتى أن (الإسلام) في لفظه مشتق من واحدة مع السلام. من هذا المنطلق الإسلامي الكبير، فقد كان النبي (ص) داعية سلام، وكذلك كان الإمام علي (ع) وعلى نهجها سار الإمام الحسين (ع) يدعو إلى الإسلام والسلام والهداية والوئام، ولم يكن داعية حرب وقتال كما هو شأن من يطلب الإمارة والسلطان، وإنما كان داعية هداية وحق، ليملك النفوس والوجدان، قيل أن يمتلك الأجساد والأبدان يقول (ع): "إنني لم أخرج أشرا ولا بطرا، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدي محمد (ص)، أريد أن أمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر". حيث لم يكن الحسين (ع) يريد القتال، ولكنّه فُرض عليه فرضاً، وهذا القتال إن كان في ظاهره الحرب والقتل، فإنّه في باطنه يعني تخليص المؤمنين من أشرار الأُمّة وتحريرهم من الطغيان. وكان قربان ذلك التحرير هو الإمام الحسين بن علي (ع)، ولولا هذا التطهير والتحرير ما بقي للإسلام والمسلمين حول ولا طول، ولما كنا نحن مسلمين اليوم، فبنور الحسين أضاءت المشاعل في طريقنا، ومن دم الحسين نبتت الهداية في نفوسنا. سار الإمام الحسين (ع) إلى العراق على نهج جده وأبيه (عليهما السلام)، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالنَّوْءِ عِظَةَ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل/ 125). ما الفرق بين الحكمة والموعظة؟ قال بعضهم: إن الحكمة تُعلم الناس شيئاً لا يعرفونه فتهدبهم به. أما الموعظة فهي أن تذكرهم بما يعرفونه فترشدهم به. أما الجدل الحسن فهو الذي يكون هدفه الوصول إلى الحق، وليس فرض الرأي على الشخص الآخر، وذلك بأسلوب من اللطف والاحترام المتبادل، والله تعالى يقول: (وَلَوْ كُنْتُمْ فَطًّٰرًا غَلِيظِي الْقَلْبِ لَأَنَّفَظْتُمْ مَنِ حَوْلَكُمْ) (آل عمران/ 159). وقد ركّز الحسين (ع) دعوته على مبدأين رئيسيين: الأول: أن لا يواجه أحداً حتى يبين له الحق ويدعوه إليه، وبيّن له خطأه طلباً لهدايته، وإقامة الحجة عليه ومن ذلك نصائحه ونصائح أصحابه لأهل الكوفة قبل بدء القتال. الثاني: أن لا يبدأ بالقتال حتى يكون عدوّه هو البادئ به لأنّ البادئ هو المسؤول عن كلّ الدماء الحاصلة. وقبل أن يصل الحسين (ع) إلى كربلاء، وكان أصحاب الحر بن يزيد قد منعه من نزول نينوى، قال له زهير بن القين رضوان الله عليه: "يا بن رسول الله ذرنا نقاتل هؤلاء القوم، فإنّ قتالنا إياهم الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا معهم بعد هذا، فلعمري ليأتينا من بعدهم مالا قبيل لنا به". فقال له الحسين (ع): "صدقّت يا زهير، ولكن ما كنت لأبدأهم بالقتال حتى يبدأوني". ثم وصل الحسين إلى كربلاء، فخيّم هناك، وجاءته الجيوش بقيادة عمر بن سعد لقتاله، فلم يتوان عن إسداء النصح لهم، طمعاً في هدايتهم. فأول ما عمل طلب الاجتماع برئيسهم عمر بن سعد، فلما التقيا قال له (ع): "ويحك يا بن سعد أما تتقي الله الذي إليه معادك؟ أتقاتلني وأنا ابن من علمت. يا هذا ذر هؤلاء القوم وكن

معي فإنه أقرب لك من الله"، فقدّم له ابن سعد أذاراً واهية، ردّها عليه الإمام. وحانت لابن سعد فرصة ثمينة من الهداية لكنّه لم يردّها، لأنّه أحب الدنيا وفضلها على الآخرة، وحبّ الدنيا كما قال أمير المؤمنين (ع): "رأس كلّ خطيئة". ولما لم تنفع الموعظة في قائلهم، قال الحسين (ع): "دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه أو أذهب في هذه الأرض العريضة، حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس". المسافة شاسعة والأرض مديدة ورمال الصحراء توقدها حرارة الشمس اللافة وقطار الحسين (ع) يخرق قلب الصحراء ويجتاز كثبان الرمال ولو افح الحصى. وهكذا سارت كواكب الفداء وطلّاع الجهاد تيمم وجهها شطر البيت الحرام لتنتهي إلى أرض الطفوف كربلاء، إلى مئوى الخالدين ومنازل الأحرار، يقودها الحسين سالكاً الدرب الذي اعتاد الناس سلوكه متحدياً السلطة والقوة والمطاردة.